مع المصطفى

صلى الله عليه وسلم

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ
أستاذ التفسير والدراسات العليا
كلية الشريعة بجامعة القرويين

طبعة جديدة
مُعدلة ومنقحة

دار المعارف

تصميم الغلاف : **منال بدران**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

صدق الله العظيم

دليـــل

(١)

قبل المبعث : الدار والأهل

(٢)

مع المصطفى ﷺ فى دار مبعثه

(٣)

بوادر التحـــول

(٤)

مع المصطفى ﷺ فى دار هجرته

(٥)

﴿ودخل الناس فى دين الله أفواجًا﴾

باسم الله ، والحمد لله ،
له الأمر من قبل ومن بعد

نجــوى . . وإهـــداء

ابنى الفقيد الغالى ، المهندس أكمـل أمين الخـولى

فقدُتك فجأة فى عِزِّ شبابك يا ولدى الحبيب ، وأنا هامـةٌ اليوم أو غد . حين كنت أُعِدُّ هذه الـطبعة الجـديدة من كتـابى (مع المصطفى ﷺ) فتصدع كيانى وأوحشت دنياى وكأنى فقدت إرادة البقاء .

وفيما كنت تحت وطأة المحنة الصعبة أطوى أوراقى وأنطوى على نفسى الضائعة ، إذا بطيفكِ حيًّا شاخصا ماثلا أمامى ملء بصرى وسمعى ، ملء قلبى وخـواطرى ورؤاى ، يشـد أزرى بصحبة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فأجمع شتات نفسى الضائعة وكيانى المتداعى ، لأرفع إليه صلوات الله عليـه وسلامه هذا الكتاب : زكاة وقربى ونجوى . .

أحتسبك عند الله يابنى رضى الله عنك . .

وسلام أنت وسلام عليك ،

ووداعا ، إلى أن نلتقى ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

مصر الجديدة : ربيع الآخر ١٤١٢هـ
أكتوبر ١٩٩١م

أمك .. عائشة

هذا الكتاب

مع المصطفى ﷺ عشت من يوم مولدى،

آيات معجزته كانت أول ما يصل إلى سمعى مع نور الفجر، يتلوها والدى التقى العابد رضى الله عنه، فى تهجده وصلاته.

وأحاديثه الشريفة كانت مع آيات القرآن، الزادَ الروحى الذى تعيش به بيئتى المتدينة، من قبل أن أعرف الدنيا.

وسيرته الزكية العطرة، كانت أُنس دنيانا، من قبل أن تُحَلَّ عنى تمائم الصبا.

والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية، كانت أول ما لمس وجدانى وأرهف احساسى، من يوم أن بدأت خطوتى الأولى على درب الحياة..

* * *

ومع المصطفى ﷺ عشت وأنا أستقرئ ما وعى التاريخ من تراجم سيدات بيت النبوة، رضى الله عنهن فأجتلى ملامح شخصيته صبيًّا فى (أم النبى) وزوجًا فى (نساء النبى) وأبًا فى (بنات النبى) صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ثم، مع المصطفى نبيًّا رسولاً، أمضيت حياتى العلمية منذ استشرف بى أستاذى «أمين الخولى» إلى الأفق الرحب الذى طمحت إليه فى دراساتى القرآنية، وقاد خطاى على الطريق الصعب لأجتلى أسرار البيان المعجز..

* * *

وإذ يسَّر الله وأعان، فقدمت إلى المكتبة الإسلامية محاولتى المنهجية فى (التفسير البيانى للقرآن الكريم) ودراساتى القرآنية: (مقال فى الإنسان، والشخصية الإسلامية، والقرآن وقضايا الإنسان) وأتممت دراستى لما شغلنى أعوامًا من (الإعجاز البيانى للقرآن الكريم). وما تعلقت به من تحقيق أعز ذخائرنا فى علوم مصطلح الحديث: (مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح)..

استروحت إلى صحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإذا بى فى فيض من سناه، قد طويت أبعاد المكان وآماد الزمان، إلى مسرح الأحداث الكبار التى بدأ بها عصر جديد للإنسان،

وعشت بوجدانى وفكرى مع المصطفى ﷺ من مهد مولده إلى غار حراء، ثم فى مثواه فى المدينة المنورة.

ولم أشأ، بل لم أستطع، أن أنصرف عن هذه الصحبة مع المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، فكأنى إذ أعكف على كتابتها أطيل مدى أنسى بها، وألتمس من مشاركة أصدقائى القراء، ما يضاعف لى عطاءها السخى..

* * *

وما أقدمه إلى أبنائى وأصدقائى القراء، من حديث هذه الرحلة (مع المصطفى، عليه الصلاة والسلام) ليس التاريخَ وليس السيرةَ، وإنما هى مشاهد مما اجتليتُ سيطرتْ على وجدانى، ومواقفُ شدَّت إليها تأملى بجاذبية آسرة، وارتبط فيها الماضى الحىُّ بالحاضر المشهود، فما تتجلى لنا رؤى الماضى ومشاهده، إلا لتؤنس وحشتنا وتهدى خطانا، ولنذكر نعمة الله الكبرى أن أعزنا بالإسلام وبعث فينا المصطفى ﴿شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذِيرًا، وداعيًا إلى اللَّهِ بإذِنِه وَسِرَاجًا مُنيرًا﴾

مصر الجديدة

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

(١)

قبل المبعث

الدار، والأهل

- أم القرى والبيت العتيق
- اليتيم الهاشمى: المولد
- من مهد مولده إلى غار حراء

أُمُّ القُرَى، وَالبَيتُ العَتِيق

﴿ .... وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

فى مكة المكرمة كان مهد مولد المصطفى ﷺ ومنزل آبائه من عهد إسماعيل عليه السلام، الجد الأعلى للعرب العدنانية.

وتاريخ الأديان يعى، ما سبق الإسلام من بوادر آذنتْ بوشك فجرٍ جديد لابد أن ينسخ ما تراكم على أفق الدنيا من ظلمات ليلٍ طال...

وقضت المشيئة العليا أن تكون مكة مبعثًا لخاتم الرسل الأنبياء عليهم السلام، ومكة وقت المبعث كانت دار شرك ومركز الوثنية العربية، وليست فى ظاهرِ الحال أَوْلى من بلادٍ أُخرى كانت مهدًا للأنبياءِ من قبل، ومبعثًا لرسالاتٍ دينية سبقت الإسلام.

المؤمنون لا يترددون فى أن يتلوا كلمته تعالى ﴿اللّهُ أَعلَمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه﴾.

ثم لا يجدون حرجًا فى أن يتدبروا، كما أمرهم دينهم، حكمتَه تعالى فى سُننه، وأن ينظروا فى واقع الحياة قبل المبعث، وموضع منزل الوحى فى عالَمٍ كان، حينذاك، يريد أن ينقض.

وتاريخُنا الدينى يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة فى اصطفاءِ مكة لمبعث خاتم المرسلين، وقد كانت من قديم العصور والآباد حرمًا مقدسًا، وعلى أرضها قام أول بيتٍ عُبِد فيه اللّهُ سبحانه على الأرض.

ولا ندرى تمامًا، الظروف التى تداعى فيها بنيان ذلك البيت العتيق، وتسربت إليه ظلالٌ وثنية دنَّست حرمه، حتى تلقى «إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل» عليهما السلام، العهد من الله

تعالى بأن يرفعاه القواعد من البيت ويطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وبأمر الله تعالى، أذَّن إبراهيم فى الناس بالحج إلى البيت العتيق، فأتوه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق.

ومن ذلك الزمن الموغل فى الماضى السحيق، رسخت مكانة مكة فى تاريخنا الدينى، ولكن الوثنية عادت فتسللت إلى حرمها، مع أوثان وأصنام كانت فى أول الأمر رموزًا للخالق المعبود، ثم فقدت رمزيتها وصارت معبودات.

قال «ابن إسحاق»، فى السيرة النبوية:

«ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل - أهل مكة - أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفُسَح فى البلاد، إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى آل ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، حتى خلَف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على المزدلفة وهدى البُدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

وكانت عبادتهم مشوبة برواسب من قديم ما قبل الطوفان، كما يظهر ذلك فى أسماء أصنام لهم، بأسماء الأصنام التى اتخذها الكفار من قوم نوح آلهة لهم، وذكرها الله تعالى فى سورة نوح: ﴿وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُن وَدًّا ولا سُوَاعًا، ولا يَغوث ويعوق ونسرًا﴾.

فكان لهذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر صنمها «سواع» ولقبيلة كلب بن وبرة القضاعى، صنمها «وَدّ» واتخذت بطون من طيئ ومذجح صنمها «يغوث» واتخذت خَيوان، بطن من همدان «يعوق» وأما «نَسر» فكان لذى الكلاع بأرض حمير»[1].

وظل لمكة مع ذلك، مركزها الدينى لا تنازعها فيه بلدة أخرى. وبقيت مثابة حج العرب فى الجاهلية الوثنية، على مر الحقب، وكأنما كان البيت العتيق فيها، ذكرى شاخصة من عهد إيمانها القديم، يحمى بقية من الوعى كامنة فى العمق الغائر من ضمير الجاهليين، عبدة الأوثان والكواكب، قال تعالى:

(١) ابن إسحاق، السيرة الهشامية، مع الروض الأنف ١٠١/١ والأصنام للكلبى ط دار الكتب المصرية.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

ومع رسوخ الوثنية العربية فى مكة إبان الجاهلية، لم تستطع قط أن تطوى تمامًا ذكريات ماضيها الدينى وتلقى به فى متاهة النسيان. وكان الزمن كلما تقدم بها هزتها رجفة الوعى فخامرها ريب فى تلك الأوثان التى تكدست فى حرم بيتها العتيق، لم تنس بها خالقها، وإن أشركتها معه، سبحانه، فى التعبد.

وكانت القبائل العربية تحج إلى الكعبة فى الموسم، وتطيف كل قبيلة بوثنها ضارعة ملبية، فتذكر الله من حيث تدرى أو لا تدرى، وترفع إليه الضراعة والنجوى، إما بمنطق الشرك: يبدؤون بالتلبية لله وحده ثم يشركون به أصنامهم وإن جعلوا أمرها لله، كتلبية كنانة وقريش:

لبيك اللهم لبيكْ   لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك   إلا شريك هو لك
تملكه وما مَلَكْ

أو على وجه الملاذ إليه وحده، وترك أصنامهم فى منازل القبيلة، والحج إليه، ابتغاءَ رضوانه، كتلبية «همدان» فى الجاهلية:

لبيكَ ربَّ همدانْ   من شاحطٍ ومن دانْ
جئناك نبغى الإحسانْ   بكل حَرْفٍ مذعانْ
نطوى إليك الغيطانْ   نأمل فضل الغفرانْ

* * *

لبيكَ معْ كل قبيلٍ لبُّوكْ   همدانُ أبناءُ الملوك تدعوكْ
قد تركوا أصنامهم وانتابوك   فاسمع دعاءً فى جميع الأملوكْ[1]

ومؤرخو الإسلام، يذكرون ما راج فى المنطقة قبل المبعث، من إرهاصات عن نبى آن مبعثه، ولا نجادل من يستريب من أبناء هذا الزمان فى هذه المرويات، ويحملها على منحولات الرواة وإضافات السمار، غير أن الواقع التاريخى يؤكد أنها، على أى وجه رضيناه لها وحملناه عليها، تكشف عن تطلع الحياة قبيل الإسلام، إلى تحول جديد وحاسم.

---

(١) تجد فى (رسالة الغفران) نصوصا مع هذه، من تلبيات العرب فى الجاهلية: ص ٥٣٤ وما بعدها. ط خامسة، ذخائر العرب وانظر معها (كتاب الأصنام للكلبى).

وتاريخ الأديان العام، يمكن أن يضيف إضاءَة أُخرى إلى ما قدمه مؤرخونا عن أرض المبعث:

الجزيرة العربية عرفت بصورة أو بأُخرى، كل الملل والنحل والعقائد التى كانت البشرية تعتنقها قبل الإسلام.

عرفت المسيحية فى نجران والحيرة وغسان وتخوم الحبشة، واليهودية فى يثرب وما حولها من مستعمرات يهود شمالىّ الحجاز، وعرفت الصابئة عبدة النجوم والكواكب، فى سبأ، وسمعت عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس...

وتلاقت هذه الأديان الوافدة، مع الوثنية العربية، ومع بقيةٍ من دينِ إبراهيم قاومت الضياع قرونًا وأدهارًا، فتمثلت فى قلة من الحنفاءِ رفضوا عبادة الأوثان فى أُخريات الجاهلية، وتجد أخبارهم بتفصيل، فى الجزءِ الأول من (السيرة النبوية لابن إسحاق رواية ابن هشام).

والتقاءُ هذه الأديان والعبادات فى المنطقة الواحدة، يمنحها فرصة التنبه إلى ما بينها من مظاهر التشابه والخلاف، ومثار الخصومة والتنازع.

كما أن توزع أهل الجزيرة العربية بين مختلف الملل والنحل، فى فترة من حياتهم كانت تقتضى التجمع والترابط لمواجهة التهديد الخارجى من فرس وروم وحبشة ويمن، أرهف حسهم لما داخلَ تدين كلِ طائفة من شوائب الانحراف والتعصب، فإن لم يصل بعرب الجزيرة إلى مستوى التمييز، فأدنى أثره أن يجعل المنطقة فى حيرة وتردد، لا تدرى أى تلك الطوائف على حق وأيها على باطل.

ولم تكن الفطرة العربية، قد أفسدها ما تسلط على الفرس والروم من ترف باذخ وانحلال منهك، ولا قهرها ما تسلط على شعوب المناطق حولها - فى الشام ومصر وما وراءَها من أقطار الشمال الإفريقى - من وطأة الاحتلال الذى جثم عليها قرابة ألف عام، لم تنج منه سوى الجزيرة العربية التى اعتصمت بمنعتها الطبيعية، وحمتْها بواديها الجرداءُ من مطامع الغزاة.

وإنما ألقت الوثنية غشاوة على بصيرة العربى، فتابع آباءَه على دينهم تعصبًا وتوقيرًا، لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعًا على سَفَهٍ وضلال.

وتراث الشعر الجاهلى لقرنين قبل الإسلام، يؤكد مع ذلك، ما كان يجتاح الوجدان العربى من قلق وحيرة، وتطلع إلى نور جديد يمزق الغشاوة، ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية ومهانة الشرك وخلل الأوضاع.

لا فى ديوان المتحنفين فحسب، ولكن فى ديوان تلك الفترة بوجه عام، وفيها كان «قس بن ساعدة» يقف فى سوق عكاظ بالموسم، فيهز الضمير العربى بحكمته ومواعظه، وفيها كانت آفاق الجزيرة ترجع ما يأتيها من أسواق أم القرى فى مواسم الحج، من مثل قول «زهير بن أبى سلمى والد كعب وبجير رضى الله عنهما:

فـلا تكتمُنَّ اللّهَ مـا فى نفـوسكم ... لـيخفـى، ومهـا يُكـتم اللّهُ يعلمِ
يؤخَّـرْ فيوضـع فى كتـابٍ فيـدخـرْ ... لـيـوم الحسـابِ أو يُعجَّـلْ فـينـقمِ
وأعـلمُ علمَ الـيـوم والأمسِ قـبـلَه ... ولـكـننى عـن علمِ مـا فى غـدٍ عَمِ
ومن هـاب أسبـابَ المنـايـا ينلنـه ... ولـو رام أسبـاب السـماء بـسُـلَّمِ
ومن يـوفِ لا يُـذممْ ومن يُهـدَ قلبُـه ... إلى مـطمئـن الـبرِّ لا يتـجمجـم
ومهـما تكن عنـد امـرئ من خليقـة ... وإن خـالهـا تخفى عـلى النـاس تُعلَم

* * *

ألا ليت شعرى هل يرى الناسُ ما أرى ... من الأمـر أو يبـدو لهم مـا بـدا ليـا
بـدا لىَ أن الـلّهَ حـق فـزادنى ... إلى الحق تقـوى الله مـا كـان باديـا
وأنى مـتى أهـبطْ مـن الأرض تـلعـةً ... أجـدْ أثـرًا قبـلى، جـديـدًا وبـاليـا
أرانى إذا مـا بِـتُّ بِـتُّ عـلى هـوى ... وأنى إذا أصبحـت أصبحـت غـاديـا
إلى حـفـرةٍ أهـدَى إليـهـا مقيـمـة ... يحُثُّ إليـهـا سـائق مـن ورائيـا
كـأنى وقـد خُـلِّفت تـسعـين حِجَّـةً ... خلعت بهـا عـن منكـبىَّ ردائيـا
أرانى إذا مـا شئـت لاقيـت آيـةً ... تـذكـرنى بعـد الـذى كنت نـاسيـا
ألم تـر أن الله أهـلك تُـبَّـعـا ... وأهـلك لقْـمـانَ بـن عـادٍ وعـاديـا
وأهلك ذا القرنـين من قبـل مـا تـرى ... وفـرعـون جبـارًا طغى والنجـاشيـا
ألا لا أرى ذا إمَّـة أصـبـحـتْ بـه ... فـتـتـركـه الأيـام وهْـىَ كـما هيـا
ألم تـر لـلنعـمـان كـان بـنـجـوة ... من الشـر لـو أن امـرءًا كـان نـاجيـا
فـغـيَّر منـه ملكَ عـشريـن حجـةً ... من الـدهـر يـومٌ واحـد كـان غـاويـا
فـلم أر مسـلوبـا لـه مثـلُ مُلكِـه ... أقـلَّ صـديـقًـا بـاذلاً أو مـواسيـا

* * *

وقول «النابغة الذبيانى» فى اعتذاره للنعمان بن المنذر:

حـلفتُ فـلم أتـرك لـنفسـك ريبـة ... ولـيس وراءَ اللّهِ لـلمـرءِ مـذهـبُ